منهج الزمخشري في التفسير البلاغي، من خلال كتابه الكشاف

UzairuKasim Ramadan[1]
08036571774
ukramadan@fudutsinms.edu.ng

[1]Department of Islamic Studies, Federal University Dutsin Ma Katsina State, Nigeria

ABSTRACT

This paper addresses the methodology of Al-Zamakhshari in Qur'anic exegesis through his renowned work Al-Kashshāf*. The researcher chose this topic due to Al-Zamakhshari's unique approach to interpreting the verses of the Noble Qur'an in this book.* Al-Kashshāf *is undoubtedly of great significance as one of the prominent exegetical works that focus on the linguistic dimension of the Qur'anic text. It serves various scholars: the jurist derives legal rulings through linguistic understanding and determines what is lawful and unlawful; the grammarian bases, grammatical rules upon it and uses it to distinguish between correct and incorrect expressions; the rhetorician draws on it to appreciate the eloquence and literary style of the Qur'an and understands the methods of rhetoric in constructing speech, among other uses. The main objective of this paper is to highlight the role of the eminent scholar Al-Zamakhshari in uncovering the rhetorical secrets embedded within the Qur'an through his interpretation. Due to his evident and flawed Mu'tazilite (rationalist) creed that is reflected in his tafsir, the study also points out and exemplifies some of these doctrinal inclinations from his commentary. The researcher employed the methods of compilation, tracing, and induction to define key terms related to the topic, provide a biographical overview of the author, and extract appropriate examples from his work.*

Key Works: *Methodology, Rhetorical Interpretation, Al-Kashshaf*

الملخص

يتناول هذا المقال موضوع منهج الزمخشري في التفسير، من خلال كتابه الكشاف، وقد اختار الباحث الموضوع لما للزمخشري منهج خاص في تفسير آيات الذكر الحكيم في هذا الكتاب، إذ أن كتابه الكشاف بلا شك ذو أهمية كبيرة جدا في كونه من كتب التفسير المهمة التي تهتم بالجانب اللغوي أثناء تفسير الآيات، حيث يستنبط الفقيه الأحكام من خلال الفهم اللغوي ويستخرج حكم الحلال والحرام، والنحوي يبني منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبلاغي يهتدي به إلى حسن النظام، ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام، وغير ذلك. والهدف من المقال هو بيان دور العلامة جار الله الزمخشرى في إبراز الأسرار البلاغية التي اشتمل عليها القرآن الكريم من خلال تفسيره. ولما له من عقيدة اعتزالية فاسدة وظاهرة في تفسيره تمت الإشارة إليها مع المثال من تفسيره. وقد سلك الباحث منهج الجمع والتتبع والاستقراء لتعريف المصطلحات المتعلقة بالموضوع وترجمة المؤلف النموذجي واستخراج الأمثلة الملائمة من مؤلفه.واشتمل المقال على النقاط التالية:

1- التعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف.
2- دور البلاغة وأهميتها في تفسير القرآن الكريم وفهم معانيه.
3- منهج الزمخشرى في التفسير واهتمامه بالجانب البلاغي.
4- خاتمة.

النقطة الأولى: التعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف.

نسبه

هو الإمام أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمى، الزمخشري، الحنفى، المعتزلى، الملقب بجار الله. ولقب بجار الله لأنه جاور في مكة المكرمة عند البيت الحرام سنوات عديدة. ولد يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة 467 هـ. وتوفي في (جرجانية) عاصمة خوارزم ليلة عرفة سنة 538هـ وعاش إحدى وسبعين سنة.([1])

سيرتة وأحواله

كان الزمخشري أبيَّ النفس، معتزا بها، يرفض الضيم، ويأنف الذل، وكان شديد الإعتداد برأيه، والثقة بنفسه، والصلابة فيما يذهب إليه، وكان على حظ كبير من التدين والزهد والبعد عن الشبهات والعزوف عن الدنيا، ولم يجد مؤرخوه فيه مطعنا إلا الاعتزال. وكان الزمخشري شاعرا مبدعا، وله ديوان شعر ما زال مخطوطا، وهو من العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج. ومن روائع شعره قوله في تبرير إيثاره العزوبة على الزواج، وعزوفه عن الزواج وإنجاب الأولاد:

تصفحت أولاد الرجال فلم أكد أصادف من لا يفضح الأم والأبا
رأيت أبا يشقى لتربية ابنه ويسعى لكي يدعى مكيسا ومنجبا
أراد به النشئ الأغر فما درى أيوليه حجرا أم يعليه منكبا
أخو شقوة ما زال مركب طفله فأصبح ذاك الطفل للناس مركبا
لذا تركت النسل واخترت سيرة مسيحية أحسن بذالك مذهبا([2])

قال الذهبي المعاصر نقلا عن صاحب وفيات الأعيان: "كان الزمخشرى معتزلى الاعتقاد، متظاهراً باعتزاله، حتى نُقِل عنه: أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه فى الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له أبو القاسم المعتزلى بالباب". ([3])

تعلمه ورحلاته في طلب العلم

[1] - الخالدي، الدكتور صلاح عبد الفتاح، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين،ص:532. الطبعة الخامسة، دار القلم، دمشق.
[2] - الخالدي، المرجع السابق. ص:536.
[3] - الذهبي، التفسير والمفسرون، ج:4، ص:103.

نشأ في (زمخشر) وسط أبوين صالحين، وتلقى العلم على أبيه عمر أولا، وحفظ عليه القرآن، وتلقى العلم على كبار علماء عصره في خوارزم وبخارى وغير ذالك.([4]) قدم بغداد، ولقى الكبار وأخذ عنهم، ودخل خراسان مراراً عديدة. وما دخل بلداً إلا واجتمع عليه أهلها وتتلمذوا له، وما ناظر أحداً إلا وسَلَّم له واعترف به. ولقد عظم صيته وطار ذكره حتى صار إمام عصره من غير مدافعة.([5]) وصار عالما معروفا في خوارم وخراسان وهو في الثلاثين من عمره، واشتهر بعلمه في التفسير والنحو والعقيدة والأدب.([6])

قال الخالدي نقلا عن عبد الله نذير أحمد في مقدمته لكتاب الزمخشري (رؤوس المسائل): "وفي مطلع القرن السادس رحل إلى مكة لأداء فريضة الحج، وجاور في بيت الله الحرام، ولقب بجار الله، واجتمع بشريف مكة وأميرها (علي بن حمزة ابن وهاس)، وهو من آلا البيت وعلى مذهب المعتزلة، فأكرمه غاية الإكرام، وألف عند الحرم معظم كتبه، ومنها تفسيره الكشاف، وتجول في كل أنحاء جزيرة العرب من اليمن وعمان ونجد وغيرها، واستمرت مجاورته في الحرم سنوات عديدة، ثم زار خوارزم وأقام بها فترة قصيرة، وعاد وجاور في الحرم سنوات أخرى، ثم غادرها عائدا إلى خوارزم".

مؤلفاته:

قال الخالدي: "وألف الإمام الزمخشري مجموعة من الكتب بلغت حوالي خمسين كتابا، في التفسير واللغة والأدب والبلاغة والفقه. من أشهرها: تفسيره الكشاف، وأساس البلاغة: معجم يهتم بالاستعارة والمجاز، وأطواق الذهب: في الوعظ والنصائح والحكم، وأعجب العجب في شرح لامية العرب، والأمكنة والجبال المشهورة في شعر العرب، والمفصل في النحو، والمستقصى في أمثال العرب، والفائق في غريب الحيث، وشرح مقامات الزمخشري سماه النصائح الكبار،

[4] - الخالدي، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين،ص:532. المرجع السابق
[5] - الذهبي، التفسير والمفسرون، المرجع السابق. ج:4، ص:103.
[6] - الخالدي، المرجع السابق. ص:533.

والأحاجي النحوية، وربيع الأبرار ونصوص الأخبار في الأدب والتاريخ والعلوم، ورؤوس المسائل في الفقه الخلافي بين الحنفي والشافعي". وهذه الكتب كلها مطبوعة وغيرها من كتبه مطبوع أيضا.([7])

عقيدته الاعتزالية وأثرها الفاسد في تفسيره:

كان –عليه من الله ما يستحق– من أصحاب المذهب الاعتزلي، وينتصر لمذهبه ويبث سموم عقيدته مهما وجد الفرصة، ويخفي وراء اللغة والبلاغة حتى ينال مراده الخبيث. وأمثلة ذلك شائع في تفسيره الكشاف. يقول الذهبي: الزمخشري كغيره من المعتزلة إذا مر بلفظ يشتبه عليه ظاهره ولا يتفق مع مذهبه يحاول جهوده أن يبطل هذا المعنى الظاهر وأن يثبت للفظ معنى آخر موجودا في اللغة.[8] ومثال ذلك عند تفسير لقوله

تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) قال:

والناضرة: منضرة النعيم لِرَبِّهَا ناظِرَةٌ تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول.

ألا ترى إلى قوله إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ، إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ، إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيها الخلائق كلهم، فإنّ المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصهم بنظرهم إليه لو كان منظورا «2» إليه: محال، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه أن يكون منقولا لناس:

أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، تريد معنى التوقع والرجاء. ومنه قول القائل:

وإذا نظرت إليك من ملك... والبحر دونك زدتني نعما[9]

---

[7]- المرجع السابق، ص:533.

[8] الذهبي، التفسير والمفسرون، ص: 315

[9] الزمخشري، الكشاف، ج: 4، ص: 666

فها هو يظهر عقيدته بكل تصريح ولا حياء فينفي رؤية الله يوم القيامة وحرف معنى الآية رغم وضوحها ويجعل النظر المتعدى بإلى بمعنى التوقع والرجاء.

التعريف بالكشاف

سبب تأليف الكشاف

- تذكر المصادر السبب الذى دعا إلى تأليف كتابه وطريقته في تأليفه كما بينه في تلك المقدمة، قال: "ولقد رأيت إخواننا فى الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلىَّ فى تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحُجُب، أفاضوا فى الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقاً إلى مُصنَّف يضم أطرافاً من ذلك، حتى اجتمعوا إلي مقترحين أن أُملي عليهم **الكشف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، فى وجوه التأويل**، فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد. والذى حدانى إلى الاستعفاء – على علمى أنهم طلبوا ما الإجابة إليه علىَّ واجبة، لأن الخوض فيه كفرض العَيْن – ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلاً أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمى البيان والمعانى، فأمليت عليهم مسألة فى الفواتح، وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً كثير السؤال والجواب، طويل الذيول والأذناب، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم مناراً ينتحونه، ومثالاً يحتذونه، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله، فتوجهت تلقاء مكة، وجدت فى مجتازى بكل بلد مَن فيه مسكة من أهلها – وقليل ما هم – عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملَى، متطلعين إلى إيناسه، حراصاً على اقتباسه، فهزَّ ما رأيت من عِطفى، وحرَّك الساكن من نشاطى، فلما حططت الرَحْل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدرجة الحسنية: الأمير الشريف،

الإمام شرف آل رسول الله، أبى الحسن، بن حمزة بن وهاس – أدام الله مجده – وهو النكتة والشامة فى بنى الحسن، مع كثرة محاسنهم، وجموم مناقبهم، أعطش الناس كبداً، وألهبهم حشىً، وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يُحدِّث نفسه فى مدة غيبتى عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادة، بقطع الفيافى وطى المهامه، والإفادة علينا بخوارزم، ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض، فقلت: قد ضاقت على المستعفى الحيل، وعيّت به العلل. ورأيتنى قد أخذت منى السن، وتقعقع الشن، وناهزت العشر التى سمتها العرب دقاقة الرقاب، فأخذت فى طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر، ووفَّق الله وسدَّد، ففُرِغ منه فى مقدار مدة خلافة أبي بكر الصدِّيق رضى الله عنه، وكان يُقَدَّر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة، وما هى إلا آية من آيات هذا البيت المحرَّم، وبركة أُفيضت علىّ من بركات هذا الحرم المعظَّم، أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجينى، ونوراً لى على الصراط يسعى بين يدى ويمينى، ونِعْم المسئول".([10])

والكتاب كما سماه المؤلف فيما تقدم في المقدمة؛ اسمه: (الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، فى وجوه التأويل). قال الخالدي: "الكشاف مبالغة من الكشف عن لطائف القرآن البيانية والبلاغية. والزمخشري لا يريد من كشافه أن يكشف عن المعاني الظاهرة، وإنما المعاني البعيدة، والحقائق الغامضة: (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، وهو في كشافه يريد أن يذكر (عيون الأقاويل) ويختار أفضلَ وأنفسَ تلك الأقوال، المتعلقة بوجوه تأويل القرآن(في وجوه التأويل).([11])

[10]- مقدمة الكشاف ص: 3-4

[11]الخالدي، المرجع السابق. ص:541-542.

أهمية الكشاف العلمية.

ألف الزمخشري تفسيره بعد أن جاوز الستين من عمره، حيث نضج في العلوم والمعرفة، واللغة والمعاني والبيان، وتدبر القرآن، والوقوف على تعبيره وإعجازه. وكتابه الكشاف هو عمدة التفاسير البيانية للقرآن.([12]) وهذا التفسير– بصرف النظر عما فيه من الاعتزال – تفسير لم يُسبق مؤلفه إليه، لما أبان فيه من وجوه الإعجاز فى غير ما آية من القرآن، ولما ظهر فيه من جمال النظم القرآنى وبلاغته، وليس كالزمخشرى مَن يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته، لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم. لا سيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب. والمعرفة بأشعارهم. وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة، والبيان والإعراب، والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العلمى والأدبى على تفسير الكشاف ثوباً جميلاً، لفت إليه أنظار العلماء وعلَّق به قلوب المفسِّرين.([13])

قال الذهبي: "وفى الحقيقة أن الزمخشرى قد جمع كل الوسائل التى لا بد منها للمفسِّر، فأخرج للناس هذا الكتاب العظيم فى تفسير القرآن "الكشاف عن حقائقه، المخلص من مضايقه، المطلع على غوامضه، المثبت فى مداحضه، الملخَّص لنكته ولطائف نظمه، المنَقِّر عن فِقَره وجواهر علمه، المكتنز بالفوائد المفتنَّة التى لا تُوجد إلا فيه، المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه، مع الإيجاز الحاذف للفضول، وتجنب المستكرة المملول، ولو لم يكن فى مضمونه إلا إيراد كل شئ على قانونه، لكفى به ضالة ينشدها محققة الأخبار، وجوهرة يتمنى العثور عليها غاصة البحار". ولما علم الزمخشرى أن كتابه قد تحلَّى بهذه الأوصاف قال متحدثاً بنعمة الله:

إن التفاسير فى الدنيا بلا عدد * وليس فيها لعَمْرى مثل كشافى
إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته * فالجهل كالداء والكشاف كالشافى

[12]- المرجع السابق. ص:542.
[13]- التفسير والمفسرون، المرجع السابق. ج:4، ص:105

وإذا كان الزمخشرى قد اعتزَّ بكشافه، وبلغ إعجابه به إلى حد جعله يقول فيه ما قال من تقريظ له، وإطراء عليه، فإنَّا نعذره فى ذلك ولا نلومه عليه، فالكتاب واحدٌ فى بابه، وعَلَمٌ شامخ فى نظر علماء التفسير وطُلابه، ولقد اعترف له خصومه بالبراعة وحسن الصناعة، وإن أخذوا عليه بعض المآخذ التى يرجع أغليها إلى ما فيه من ناحية الاعتزال، مثل ابن بشكوال، الشيخ حيدر الهروى، أبى حيان، ابن خلدون وتاج الدين السبكي.([14])

المصادر التي اعتمد عليها الزمخشري ومن تأثر بهم من العلماء:

كانت الدراسات البلاغية في عصر الزمخشري قد بلغت عصر النضج والازدهار في جانبها النظري والتطبيقي على السواء، فأقبل على دراسة التراث البلاغي عند سابقيه من المعتزلة مما كتبه النظام والجاحظ ، كما اطلع على كتب معاني القرآن للفراء، والنكت في إعجاز القرآن للرماني وغيرهما، أما أكثر الناس تأثيرا في الزمخشري في هذا الجانب فهو عبد القاهر الجرجاني الأشعري ونظرية "النظم" التي نضجت على يده، وإذا كان الجاحظ قد سبق بفكره الثاقب أن لمح البذور الأولى لهذه النظرية في بلاغة القرآن الكريم، فإن عبد القاهر الجرجاني قد استطاع أن يخرج هذه النظرية في صورتها المكتملة في كتابيه " دلائل الإعجاز " و" أسرار البلاغة " .([15])

أثر الكشاف على التفاسير التي جاءت بعده

لقد ذكر الخالدي أثر الكشاف على كتب التفسير التي جاءت بعده قائلا: "وقد اعتمد على تفسير الكشاف المفسرون الذين جاءوا بعده، وأخذوا منه، ومنهم من ناقشه ورد عليه تأويله للآيات بما يتفق ومذهبه الإعتزالي. لقد كان أثر الكشاف واضحا في التفاسير التالية:

1. تفسير مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي.
2. تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للقمي النيسابوري.

[14] - الذهبي، التفسير والمفسرون، ج:4، ص:105 بتصرف.

[15] - الأستاذ رمضان يخلف، الموازنة بين تفسير الكشاف للزمخشري وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي. ج:1، ص:3.

3. تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي.
4. تفسير الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي أحمد ابن يوسف.
5. تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي ناصر الدين البيضاوي.
6. تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات النسفي.
7. تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم.

بالإضافة إلى التفاسير الأخرى التي فسرت القرآن بالرأي كتفسير روح المعاني للآلوسي، ومحاسن التأويل للقاسمي، والمنار لرشيد رضا، والتحرير والتنوير لإبن عاشور. أي أن تفسير الكشاف كان مرجع التفاسير البيانية والعقلية التي جاءت بعده، سواء كان أصحابها من أهل السنة أو المعتزلة أو الشيعة.([16])

النقطة الثانية: دور البلاغة وأهميتها في تفسير القرآن الكريم وفهم معانيه.

يقررالقرآن الكريم في آيات عديدة أنَّه عربي وأنه إنما نزل بلسان عربي مبين،كما في قوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ([17])، وقوله: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ"([18]) وغيرهما، كما في: 13:37، 20:113، 26:195، 39:28، 41:3، 42:7، 43:3، 46:12. "وفي هذه الآيات كلها دلالة بينة على أن عربية القرآن الكريم إنما هي عربية منهج إبانة، وليس عربية مصدر تنزُّل، ولذا كثر في هذه الآيات قوله: لعلكم تعقلون، لعلهم يتقون ، لعلهم يتذكرون" وهذا كله إنما يكون من منهاج الإبانة على معانيه ومقاصده ومغازيه ،ولذا قال الحق عز وعلا: " وَلَوْ جَعَلْناهُ قرآنًا أعْجميًّا لقالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُه أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ.."([19]) وفي ذلك دلالة بينة على أنه لايسطيع ناظر في القرآن الكريم أيا كان قدره أن يفقه شيئا منه إلا من سبيل فقهه لسان

[16] - الخالدي، المرجع السابق. ص:542-543. بتصرف
[17] - يوسف:2
[18] - النحل:103.
[19] - فصلت: 44

العربية الذي كان في أمة العرب عند نزوله، فذلك هو السبيل الأول إلى الاقتراب من حمى المعنى القرآني الكريم. وقد حرص الإمام الشافعي في سفره الجليل " الرسالة" أمِّ أسفار علم أصول فقه الكتاب والسنة على أن يبين في جلاء هذه الحقيقة ؛لأنها أم الحقائق التى تبنى عليها كافة الحقائق العلمية في هذا الباب : يقول رضي الله عنه وارضاه : " ومن جماع علم كتاب الله العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب". فانظر قوله: " جماع علم كتاب الله" فهذا دال على أن علم ما في كتاب الله عز وعلا من معانى الهدى إنما هو من علم لسان العرب فمن علمه وأتقنه كان أهلا لأن يسلك السبيل ، ومن جهله فلن يخطو خطوة واحدة على الطريق، وإن جمع علوم أهل الأرض أجمعين، فكان لزاما على كل متكلم في معانى القرآن الكريم على تعدد أنواعها وضروبها ومجالاتها الجامعة كافة شئون الحياة أن يكون أول أمره قائما على كمال تحقيق العلم بلسان العربية" .([20])

وقال الباحث في القرآن والسنة علي بن نايف الشحود في تحقيقه للبلاغة الواضحة: "فلا يمكنُ أن يوصل إلى أحكام القرآن الكريم وفهم دقائقه ومعانيه وفقه لغته والعلم بها وضبط قواعده والوقوف على علوم معانيها وبيانها وبديعها ومعرفة مفاتيح التنزيل إلا باللغة العربية، وكذلك معرفة أقوال النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو أبلغ البلغاء , فاللغةُ العربية هي علم الآلة. وأن ذروةُ سنام العربية ولبُّها وتاجُها وجوهرها البلاغةُ، وقد عدَّها العلماء علماً قرآنياً، لأن نشأتها أساساً كان في أحضان فهم التنزيل، وإدراك أسباب الإعجاز، ومعرفة طرقه ومسالكه.([21])

والبلاغة من بين المواد العربية لها دور مهم في تفسير القرآن الكريم واستخراج حكمه، وإظهار جودة أسليبه وبيان إعجازه، وقد صرح الزمخشري بقوله: "إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار

[20]- محمود توفيق محمد سعد، شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية. ج:1، ص:7، بتصرف
[21]- علي بن نايف الشحود تحقيق البلاغةُ الواضِحَةُ لعلي الجارم و مصطفى أمين المرجع السابق. ج:1، ص:1.

يدق سلكها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه، وإجالة النظر فيه كل ذي علم ، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى أحد منهم لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علم المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقيب عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن كان آخذا من سائر العلوم بحظ".([22]) ويقول الإمام أبو الحسن الأشعري فيما ينقله عنه السيوطي في معترك الأقرآن (والذي نقوله إن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالاً، وكذلك من ليس ببليغ، فأما البليغ الذي أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه وعجز غيره عن الإتيان بمثله).([23])

النقطة الثالثة: منهج الزمخشرى في التفسير واهتمامه بالجانب البلاغي.

يتناول الباحث في هذه النقطة اهتمام الزمخشري بالناحية البلاغية للقرآن الكريم ومنهجه في إبراز حقائقها وذكر الأمثلة التطبيقية من واقع الكتاب.

لما جاء الزمخشري لم يكتف بالإلمام بآراء من سبقوه في الدراسات البلاغية ، بل حاول أن يبدأ من حيث انتهى المتقدمون ، فيزيد علم البلاغة تعميقا وتدقيقا، فهو أول من قسم البلاغة إلى ثلاثة أقسام هي: المعاني ، والبيان ، والبديع، إلا أنه لم يضع الحد الفاصل بين موضوعات كل علم، بل كانت القسمة الثلاثية بصفة إجمالية موجودة في ذهنه، فمضى في تطبيقها على تفسيره

[22]- مقدمة الكشاف. ج:1، ص:1.

[23]-علي بن نايف الشحود،الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم، المرجع السابق. ج:1، ص:471.

للقرآن الكريم، وقد أفلح في ذلك إلا في مواضع قليلة. كما تمثل جهد الزمخشري من جهة أخرى في الجانب التطبيقي لعلوم البلاغة حيث طبق جميع قواعد علمي المعاني والبيان التي اهتدى إليها عبد القاهر، متخذا نصوص القرآن كاملة كأمثلة وشواهد على ذلك.([24])

وعندما يلقى الإنسان نظرة فاحصة على العمل التفسيرى الذى قام به العلاَّمة الزمخشرى فى كشَّافه، يظهر له من أول وهلة، أن المبدأ الغالب عليه فى جهوده التفسيرية، كان فى تبيين ما فى القرآن من الثروة البلاغية التى كان لها كبير الأثر فى عجز العرب عن معارضته والإتيان بأقصر سورة من مثله. والذى يقرأ ما أورده الزمخشرى عند تفسيره لكثير من الآيات من ضروب الاستعارات، والمجازات، والأشكال البلاغية الأخرى، يرى أن الزمخشرى كان يحرص كل الحرص على أن يُبرز فى حلة بديعة جمال أسلوبه وكمال نظمه، وإنَّا لنكاد نقطع – إذا استعرضنا كتب التفسير وتأملنا مبلغ عنايتها باستخراج ما يحتويه القرآن من ثروة بلاغية فى المعاني والبيان – بأنه لا يوجد تفسير أوسع مجالاً فى جهوده فى هذا الصدد من تفسير الزمخشرى. ولقد كانت لعناية الزمخشرى بهذه الناحية فى تفسيره من الأثر بين المفسِّرين وبين مواطنيه من المشارقة ما هو واضح بيِّنٌ.([25])

هنا يقوم الباحث بإيراد المنهج الذي سلكه الزمخشري في تفسيره خاصة المنهج الذييتعلقبالجانب اللغوي البلاغي لأنه هو المنهج الغالب في التفسير، كما قال الخالدي: "ومنهج الزمخشري في التفسير منهج لغوي بياني بلاغي اعتزالي"([26]) وفيما يلي ذكرها بشيئ من الإيجاز:

1. الأخذ بالمفهوم اللغوي للفظ القرآني:

كان الزمخشري يفسر القرآن باللغة العربية، ويأخذ معاني الألفاظ القرآنية من لغة العرب، لأن القرآن نزل بلغة العرب، ولا يجوز مخالفة قواعد لغتهم في فهم القرآن وتفسير ألفاظه.

---

[24]- الأستاذ رمضان يخلف، المرجع السابق، ج:1، ص:4. بتصرف.

[25]- التفسير والمفسرون، المرجع السابق. ج:4، ص:108.

[26]- الخالدي، المرجع السابق. ص:546.

مثال ذالك تفسيره للبسملة بين معنى كل من (اسم) و (الله) و (الرحمن الرحيم) وفق قواعد اللغة العربية. قال في (اسم) هو أحد الأسماء العشرة التتي بنوا أوائلها على السكون (سْمٌ) فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة (اسم)، لئلا يقع ابتداؤهم بالساكن، إذ كان دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك، ويقفوا على الساكن، لسلامة لغتهم من كل لكنة وبشاعة.. ولوضعها على غاية من الإحكام والرصانة .. وإذا وقعت (اسم) بالدرج – وسط الجملة – لم تفتقر إلى زيادة شيئ...

و(الله) أصله: إله. فحذفت همزة (إله)، وعوض منها أل التعريف، فصارت: (الله) .. والإلـه من أسماء الأجناس كالرجل والفرس، يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق. وأما (الله) فمختص بالمعبود بحق، لم يطلق على غيره. ومن هذا الإسم اشتق: تأله، وأله، واستأله.. كما قيل استنوق، واستحجر، في الاشتقاق من الناقة والحجر... و(الله) اسم غير صفة، وأنت تصفه ولا تصف به. فتقول: إله واحد، ولا تقول: شيئ إله. و(الله) مشتق من (أله): إذا تحير، ومن أخواته: دَلَه، وعَلَه ينتظمهما معنى التحير والدهشة: وذالك أن الأوهام والعقول تتحير في معرفة المعبود، وتدهش الفطن، ولذالك كثر الضلال، وفشى الباطل، وقل النظر الصحيح..

و(الرحمن) فعلان من (رحِم) كغضبان وسكران من غضب وسكر. وكذالك: الرحيم، فعيل منه، كمريض وسقيم، من مرض وسقم. وفي (الرحمن) من المبالغة ما ليس في (الرحيم) ولذالك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الآخرة.([27])

2. بيان دلالات الأساليب القرآنية:

يهتم الزمخشري بدلالة الأساليب البلاغية القرآنية، وبيانها على أكمل وجه إبرازا للإعجاز القرآني وفصاحة أسلوبه، فنراه يقف عند أسلوب النداء وأسلوب الإلتفات والتقديم والتأخير وصيغ الأفعال الزمانية، وغيرها من الأساليب البلاغية البيانية البديعة.

[27]- الخالدي: 546-547.

فمثلا: نرى الزمخشري يقف عند أسلوب النداء في القرءان الكريم ويحاول أن يستبين دلالته وبلاغته ، وقد نقل عنه السيوطي في كتابه "معترك الأقران في إعجاز القرءان " من باب الإعجاب به.([28]) ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾([29]) قال الزمخشري : (و " يا " حرف وضع في أصله لنداء البعيد ، صوت يهتف به الرجل بمن يناديه ، وأما نداء القريب فله " أي " والهمزة ، ثم استعمل في مناداة من سهى وغفل وإن قرب ، تنزيلا له منزلة من بعد ن فإن نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جدا . فإن قلت : فما بال الداعي يقول في جؤاره : يا رب، ويا ألله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، وأسمع به وأبصر؟ قلت هو استقصار منه لنفسه ، واستبعاد لها من مظان الزلفى، وما يقربه إلى إلى رضوان الله ومنازل المقربين هضما لنفسه وإقرارا عليها بالتفريط في جنب الله، مع فرط التهالك على استجابة دعوته ، والإذن لندائه وابتهاله. فإن قلت لم كثر النداء في القرءان على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لأن فيه أوجها من التأكيد وأسبابا من المبالغة. منها ما في " يا " من التأكيد والتنبيه ، وما في " ها " من التنبيه وما في التدرج من الإبهام في " أيها " إلى التوضيح، والمقام يناسب المبالغة والتأكيد، لأن كل ما نادى الله عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية وغير ذلك مما أنطق الله به كتابه، أمور عظام وخطوب جسام، ومعان واجب عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون، فاقتضى الحال أن ينادوا بالآكد والأبلغ)([30])

[28]- الأستاذ رمضان يخلف، المرجع السابق. ج:1، ص:28.
[29]- البقرة
[30]- الكشاف : 89/1

3. بيان جمال النظم القرآني والتحليل البياني له:

من مناهج الزمخشري في التفسير تحليل الأسلوب القرآني تحليلا بلاغيا، واستخراج روائع اللطائف البيانية منه، كما كان يحرص على بيان جمال النظم القرآني، القائم على علمي المعاني والبيان، وتحليل إعجاز القرآن تحليلا قويا. وذكر الخالدي أن " التحليلات البيانية البلاغية للآيات القرآنية تملأ الكشاف، وتدل دلالة واضحة على ما تمتع به الزمخشري من موهبة عالية، وحس بلاغي رائع، أحسنَ به تذوق آيات القرآن، وتقديمَ بعضِ ما يجده من ذالك للقارئ.

مثلا: من هذه الروائع ما قاله في تفسير قوله تعالى: "قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"([31]) حيث وقف يبين الفرق بين قوله: (سيروا في الأرض فانظروا) وقوله: (سيروا في الأرض ثم انظروا)، أي الفرق بين العطف بحرف الفاء، والعطف بحرف (ثم). ذكر أن قوله: (سيروا في الأرض فانظروا) جعل النظر في عاقبة المكذبين مسببا ناتجا عن السير في الأرض، أي أن السير في الأرض لا يكون إلا لأجل النظر، ولا يجوز لأي غرض آخر، لأن الفء فاء السببية. أما قوله: (سيروا في الأرض ثم انظروا) فمعناه إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذالك بحرف (ثم) لتباعد ما بين الواجب وهو النظر في آثار الهالكين، والمباح وهو السير في الأرض.([32])

4. الاستشهاد بالشعر العربي:

كان الإمام الزمخشري حريصا على الإستشهاد بالشعر العربي في تفسيره، حيث يأتي بالشعر شاهدا على معنى كلمة قرآنية، أو توجيه في البيان القرآني، وساعد الزمخشري على ذالك شاعريته أولا، فهو شاعر مبدع، وثقافته الشعرية ثانيا، فهو يحفظ الكثير من أشعار العرب في الجاهلية والإسلام. وقد يورد أكثر من ثلاثة شواهد في الموطن الواحد.([33])

---

[31] - الأنعام: 11.

[32] - الخالدي، المرجع السابق. ص:548.

[33] - المرجع السابق. ص: 550.

فمثلا: لما أراد أن يصرف قوله تعالى: "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ () إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" لتوافق مع مذهبه في عدم رؤية الله في الدنيا والآخرة، استشهد على كلمة (النظر) لتعنى: توقع النعمة، ببيت لم يسمّ قائله، فقال: ومنه قول القائل:

وإذا نظرت إليك من رجل # والبحر دونك زدتني نعما

5. التقليل من التفسير بالمأثور:

من مناهج الزمخشري في التفسير التقليل من التفسير بالمأثور، بعكس منهج المفسرين بالمأثور، أو المفسرين بالمنهج الأثري النظري. وكان قليلا ما يفسر القرآن بالقرآن، وإذا ذكر آية أخرى أثناء التفسير فمن أجل توضيح معنى لغوي أو بياني أو بلاغي، وليس من باب تفسير القرآن بالقرآن كما فعل المفسرون بالمأثور. وأحيانا كان يفسر القرآن بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن عالما بالحديث، ولذالك أورد في تفسيره أحاديث كثيرة ضعيفة أو موضوعة، وفيه أحاديث صحيحة.

فمثلا: لما فسر قوله تعالى: "وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين"([34]) قال: ((في قلوبهم)) بيان لمكان الإشراب، كقوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا".

وفي تفسيره لقوله تعالى: "وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ". أورد حديثين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما أصر من استغفر وإن عاد في الوم سبعين مرة" وروي عنه قوله: "لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار". وحكم ابن حجر على الحديثين بالضعف.([35])

[34]- البقرة: 93.
[35]- الخالدي المرجع السابق، ص:552-553

6. تفسير القرآن على أصول مذهب المعتزلة:

من مناهج تفسير القرآن عند الزمخشري؛ تفسير القرآن على أصول مذهب المعتزلة، فهو قد دخل عالمَ القرآن بالمقرر الفكري الاعتزالي المسبق، وأراد من الآيات أن تشهد لما يقول به المعتزلة في مسائل العقيدة، ولذالك كان يصرف الآيات عن ظاهرها ، ويقوم بتأويلها لما يريد، وينحرف بها إلى ما يريد.([36])

فمثلا: يذهب المعتزلة إلى أن الله لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة، والمؤمنون لا يرون الله في الجنة، والزمخشري يدين الله بهذا القول الإعتزالي! فلما فسر قوله تعالى: "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ () إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"([37]) قال: "فاختصاصه بنظرهم إليه —لو كان منظورا إليه– محال. فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي. تريد معنى التوقع والرجاء. ومعنى الآية: أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم، كما كانوا في الدنيا لا يرجون ولا يخشون إلا إياه..."([38])

الخاتمة

تناولت المقالة منهج جار الله الزمخشري في التفسير البلاغي، حيث تحدث المقال عن التعريف بالمؤلِّف والمؤلَّف، ثم الحديث عن دور علم البلاغة في إظهار معاني آيات القرآنية، وانتقلت الدراسة إلى ذكر النماذج التي تمثل المنهج الذي سلكه الزمخشري في التفسير البلاغي، حيث درس المقال تطبيقيا بعض الأمثلة المنهجية مع ثم بيان اهتمام الزمخشرى بالناحية البلاغية في التفسير ومنهجه في إبراز حقائقها ونماذج من الأمثلة التطبيقية للأساليب القرآنية البليغة من خلال تفسير الزمخشري وغير ذلك مما تضمنه البحث من الفوائد. وتوصل الباحث إلى النتائج التالية:

[36] - المرجع السابق: ص 555-556.
[37] - القيامة: 22- 23.
[38] - الكشاف: 4\662.

أن الزمخشري بارع في التفسير+ وتحليل الأسلوب القرآني تحليلا بلاغيا، واستخراج روائع اللطائف البيانية منه. ويحرص على بيان جمال النظم القرآني، القائم على علمي المعاني والبيان، وتحليل إعجاز القرآن تحليلا قويا. ولم يكن هو بدعا في هذا الفن، بل سبقه بعض العلماء الذين تأثر بهم، وقد أتاحت له مهارته الكلامية فرصة مناقشة الآيات مناقشة أدبية بناءة ما أداه إلى صرف بعض الآيات عن ظاهرها لغرض إعتزالي.

وقد أثر هو الآخر على الذين جاءوا بعده من مفسري المعتزلة، الشيعة وكذلك أهل السنة، حيث عكف عليه العلماء حاشية وتخريجا واقتفاء للأثر.

المراجع والمصادر

- الأستاذ رمضان يخلف، الموازنة بين تفسير الكشاف للزمخشري وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، رسالة دكتوراه،كلية اصول الدين جامعة الامير عبد القادر الاسلامية – الجزائر
- الثعالبي النيسابوري، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، لباب الآداب، تحقيق أحمد حسن لبج، الطبعة الأولى، د دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – 1417 هـ – 1997 م
- الخالدي، الدكتور صلاح عبد الفتاح، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، الطبعة الخامسة، دار القلم، دمشق، 1433هـ = 2012م
- الذهبي، الدكتور محمد حسين، التفسير والمفسرون، الجزء الأول، دار الحديث، القاهرة، 1426هـ = 2005م.
- الزمخشرى، العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، دار الكتاب العربي . بيروت،1407 هـ.

– السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق حامد أحمد الطاهر البسيوني، دار الفجر للتراث.
– صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي نصرة الثائر على المثل السائر
– علي الجارم و مصطفى أمين، البلاغةُ الواضِحَةُ، جمع وترتيب وتعليق وتنسيق الباحث في القرآن والسنة علي بن نايف الشحود
– محمود توفيق محمد سعد شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر
– يونس، محمد كبير (الدكتور) دراسات في أصول التفسير، دار ابن مسعود للطباعة والنشر والتوزيع، 1431هـ = 2010م.